

عنيزة وأهلها

في كتب الرحالة الأجانب

د. سعد الصويان



هنا مكتبتني .. مكتبة للجميع

عنيزة واهلها في كتب الرحالة الاجانب

سعد الصديان

السلي

حينما طلب مني الاخ صلاح الزلام^{عليه السلام} ان اقدم محاضرة لهذا الجمع الكريم احترت قليلا لأنه لم يسبق لي ان القيت محاضرة امام صالون عائلي، فالمواضيع الجادة والخلاقية قد لا تبدو مناسبة في مثل هذا السياق، والمواضيع الترفيحية او الخفيفة قد يفهمها البعض على انها مواضيع سطحية لا تستحق الطرح. ما اخرجني من هذه الحيرة وحدد موضوع محاضرتي امامكم لهذا اليوم هو مقالة قرأتها في صحيفة اليوم للشيخ الجليل محمد الصفار نشرت بتاريخ ١٤ أبريل تحت عنوان "عنيزة: شعوخ ونساجح" يمتدح فيها تسامح اهالي عنيزة، كما كان الزميل عبدالله ابراهيم الكعيد هو الآخر كتب مقالة عن التسامح عنوانها "التماهي اللطيف بين عنيزة والقطيف" وحيث انني القي محاضرتي هذه في صالون احد عوائل عنيزة في المنطقة الشرقية قريبا من القطيف ومن الشيخ الصفار، وحيث لا يخفى عليكم ان موضوع التسامح أصبح موضوع الساعة، بل حاجة وطنية ملحة ينبغي علينا جميعا ان نسعى لتحقيقها والدفع بها وتجديدها في مجتمعنا، لذلك كله رأيت ان اتطرق في هذه المحاضرة لحدود التسامح عند اهالي مدينة عنيزة وبحث جذوره التاريخية معتمدا في ذلك على ما كتبه الرحالة الاجانب عن هذه المدينة منذ القرن التاسع عشر. لكنني، إضافة إلى الحديث عن موضوع التسامح، ويحكم ان الكثير من الحضور الليلة من اهالي عنيزة، سوف أستغل مثولي امامكم في هذه المناسبة لأورد بعض التفاصيل عن المدينة في سابق عهدها وعن أهلها وعوائلها وتجاراتها حيث يبدو أننا مع ما تمر به بلادنا من تطور سريع نسينا الكثير من التفاصيل عن حياتنا الماضية، فلعلنا نستعيد بعض هذه التفاصيل هذا اليوم والتي وإن كانت تخص مدينة عنيزة تحديدا إلا ان الحضور ممن هم لبسوا من تلك المدينة لن يجدوا اختلافا كبيرا بين ما ساقوله هنا وما يتذكرونه عن مدنهم هم على اختلافها، سواء في نجد أو في المنطقة الشرقية أو أي بقعة من بقاع المملكة.

لقد لقيت عنيزة اهتماما منقطع النظير من الرحالة الغربيين الذين زاروا العديد منهم وما سألوه عليكم الآن لا يبدو أن يكون ترجمة حرفية لبعض المقاطع المختارة اقتطفتها من صفحات الكتب التي ألفها هؤلاء الرحالة الأجانب وسجلوا فيها انطباعاتهم عن مدينة عنيزة والتي زاروها ابتداء من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين. أولهم كان الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني الذي زار نجد عام ١٨٦٤م وفي طريقه بمدينة عنيزة وأمضى فيها على ما يبدو يوما أو بعض يوم. وبعده زارها تشارلز داوتي صيف عام ١٨٧٨م وأمضى فيها شهري مايو ويونيو وسجل خلال مدة إقامته فيها أدق التفاصيل عنها وعن أهلها ومعيشتهم وحياتهم اليومية، ثم زارها جعفر فيليبي عام ١٩١٨م وبعده ذلك زارها أمين الريحاني. وحينما قرأت الفصول التي تتحدث عن عنيزة في كتب هؤلاء الرحالة أذهلني اندفاعهم في إطراء المدينة ومدح أهلها، لذلك فقد حاولت ان أقتصد في الاقتباسات وأن أقتصر على البعض منها فقط حتى لا أثم بالمبالغة والتحيز وتزيين الكلام، فما سوف أذكره ما هو إلا فيض من غيظ وما تحمله كتب الرحالة من ثناء على عنيزة أكثر مما سأذكره لكم بكثير.

زار الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني نجد عام ١٨٦٤م وفي طريقه بمدينة عنيزة التي قال عنها إنها أكبر مدن نجد ويتاجر أهلها بالخيل التي يشترونها من البدو بعد فطامها ليربونها عندهم ويعلفوها حتى تكبر ثم يجلبوها إلى الكويت، ومنها تصدر إلى بلاد فارس والهند. وقابل غوارماني زامل السليم أمير عنيزة ونعته بحدة الذكاء وتهذيب الطباع. وقال عنه إنه صحيح البنية متوسط الطول وأنه، على خلاف أهالي عنيزة، لا يحلق شعر شاربه ولا شعر رأسه الذي يجده في أربع ظفائر

تتدلى من الجانبين، كما يفعل أبناء البادية. وتدر غوارماني عمر زامل بحوالي ٥٥ عاماً. إلا أن المحرر الذي نشر كتابه أضاف ملاحظة تقول إن عمر زامل الحقيقي حينما قابله غوارماني كان ٢٥ سنة معتمداً في ذلك على تشارلز داوتي الذي زار عنيزة بعد غوارماني بعشر سنوات وقدر عمر زامل بحوالي ٤٥ سنة. ومعلوم أن زامل قتل سنة ١٨٩١ في معركة المليدا مما يعني أنه عاش إحدى وستين سنة تقريباً.

وبعد غوارماني زار عنيزة في صيف عام ١٨٧٨ الرحالة الإنجليزي ذائع الصيت تشارلز داوتي قادماً إليها من بريدة وقبل ذلك من حائل، يفتتح داوتي حديثه عن عنيزة قائلاً: كان زامل اسماً محبوباً إلى نفسي حتى قبل أن أقابله وأراه، فقد سمعت حتى خصومه من قبيلة حرب يثثون عليه، ويذكر داوتي أن لزامل ستة أو سبعة أبناء أصغرهم علي الذي كان عمره ١٢ سنة وهو يشبه أباه، إلا أن فيليبي فيما بعد سيذكر أن زامل خلف عشرة أبناء وست بنات وعبدالله هو أكبر أبنائه، ومن أبنائه علي الذي قتل في معركة المليدا وعلي من الأبناء عبدالله ومحمد، ومن أبناء زامل أيضاً صالح الزامل الذي قتل في وقعة جراب ويحي الذي توفي دون أن يخلّف أبناء ومحمد وإبراهيم وعبدالعزیز، أبو عبد الرحمن العبدالعزیز.

في اليوم الذي وصل فيه داوتي إلى عنيزة أخذه علي الشيخان أحد رجائيل الأمير زامل إلى مجلس الأمير تحت مظلة الجامع في المكان الذي يسميه أهل عنيزة 'المجلس' في السوق التجاري، وبالتحديد سوق القماش، ليس بعيداً من بيت الأمير في حارة الخريزة. وجد داوتي زامل جالساً على دكة من الطين، أو ما يشبه العتية، وسيفه إلى جنبه، وبعد أن قرأ الأوراق الثبوتية التي ناولها إياه داوتي جلس بهجانيه يتحدث إليه ويؤانسه. وما أن داوتي كان قد زار بيت المقدس عدة مرات أطلق عليه الأمير زامل لقب 'الحاج خليل'. يصف داوتي زامل بأنه إنسان متدين بطبعه وصريح وصاحب ضمير وقال لا غرر أنه نظراً لمعدنه الطيب سيكون شخصاً طيباً ومثالياً أيا كان الدين الذي يعتنقه أو الجنسية التي ينتمي إليها. فيه أناة وبرودة أعصاب تساعد في احلك الظروف على التفكير الهادئ السليم واتخاذ القرارات الصائبة، يحب العدالة ويتعامل مع الجميع برفق ولين، ولم يأت إليه أحد أيا كان، بما في تلك البدو النزقين بطبعهم، إلا واستل منه الفليظ بصبره المعتاد وتحمله وحكمته وابتسامته الهادئة وكلماته الحلوة ولا تسمع منه إلا قوله: يكون خير انشأ الله. وعلى عكس عبدالله اليحي، الأمير السابق الذي اشتهر بالتبذير والكرم المسرف مما أدى إلى أن يتوقى مديونا، فإن زامل مقتصد ومدير لأنه يعيش فقط على ما تكسب يمينه ولا ينقل أهل مدينته بالضرائب الباهظة. فهو لا يتقاضى أي ضرائب على الأدباش والدكاكين والبيوت، يفرض فقط خراجاً على الزروع والنخيل تتراوح من خمسة إلى سبعة بالمائة يذهب معظمها لبيت المال والمضيف. وتجار المدينة أكثر ثراء منه والبعض منهم يتبرع سنوياً للأمانة بحوالي عشرة ريالاً.

أمضى داوتي يومه الأول ضيفاً على علي الشحيخان في منزله لينتقل بعد ذلك ويسكن في أحد الدكاكين الذي بدأ منه يواصل التطيب. ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت صغير بجوار أحد الأشخاص الذي قال إنه من رجائيل الأمير. هذا الرجل وأمه شحلا داوتي يحفظهما وكانت الأم الطيبة تعد له الإفطار والعشاء يومياً وتعلو قريته بالماء وترعى شتره وتعامله كأحد أبنائها. ولم تطل إقامته بهذا البيت حيث انتقل إلى مسكن آخر بالقرب من الدكان الذي كان يمارس فيه التطيب.

بعد الظهيرة من يومه الأول في عنيزة تناول داوتي قهوة بعد الظهيرة في قهوة زامل التي قال إنها مفروشة بالحصير بدون سجاد، وهذا الحصير من نوع الداد التي يجلبونها من الأحساء، وكانت جدران

القهوة مزينة بالزخارف الجصية. وكان عبدالله، ابن الأمير زامل، يجلس خلف الوجار يدخن غليونته ويعد القهوة للضيوف، وقد قدر داوتي عمره بحوالي ٢٠ سنة. أثناء ذلك دخل علي السليم، عم زامل ونائبه في منصب الإمارة الذي ينوب عنه حينما يضطر زامل للذهاب إلى ميدان الحرب للدفاع عن البلد. يصف داوتي علي هذا بأنه وهابي متزمت لم يسلم عليه ولا حتى كلمه أو نظر إليه لعلمه أنه نصراني. وعلي السليم، مثل غيره من أهالي عنيزة، يتاجر بالإبل. ولما خلى المجلس من الضيوف كشف زامل عن ذراعه للحكيم، أي الطبيب داوتي، وسأله إن كان لديه علاج لحساسية مغرطة يشكو منها وحكة شديدة أدت إلى تقشر الجلد من ذراعه وتورمها، وهي سبب رجي أسوأ من حساسية حسرة. تختلف طباع أهالي عنيزة المتحضرين عن أهالي حائل الأقرب إلى البداوة والذين يرجفون خوفاً بحضور أميرهم ابن رشيد. أما هنا فالناس أحرار وأميرهم يتعامل معهم كواحد منهم. ويتمتع أهالي عنيزة بحرية مدنية تبعث على الإعجاب فلا يتكبر عليهم أمراؤهم وقد يتصدى أفقرهم للأمير يعارضه في وجهه ويرد عليه وربما يشتد به الغضب ويتهجم عليه، لكن زامل الحليم يتحمل ذلك بكل صبر وكل ما يرد عليه به هو أن يقول له: عين خير يا ابن الأجواد، عين خير الله يهديك، وينقل داوتي مثل هذه العبارات بلهجتها العامية لكنه يرسمها بحروف لاتينية.

وفي اليوم الأول جاء عبدالله الخنيني وسلم على داوتي بمنتهى اللطف وأضعا يده بيده وترجاه أن يذهب معه إلى منزله لمعالجة أمه المريضة. والخنيني، الذي قدر داوتي عمره بحوالي ٤٠ سنة، من تجار عنيزة المرموقين أتت ثروته من القمح الذي ترتفع أسعاره وتنخفض بدرجة كبيرة ومفاجئة مما يتيح هامشاً من المضاربة وتحقيق الأرباح لمن يعرف كيف يستثمر هذه التقلبات في السعر. وقد سافر إلى الشام والهند وأماكن أخرى، وله أملاك في البصرة تركها تحت رعاية أخيه صالح، وأبوه يقيم في بغداد منذ حوالي ثلاثين سنة. وقد قدر داوتي قيمة بيت الخنيني في عنيزة بما يعادل ١٠٠٠ ريال ولو أجرة لكان أجاره السنوي حوالي ١٥ ريال. وقال داوتي إن بيوت الطين في عنيزة محكمة البنيان وقد تعمر إلى أكثر من ١٠٠ سنة. ووجد داوتي في قهوة الخنيني في أحد الرواقين، أي الرف الذي يحفر في الجدار، بعض الكتب، منها موسوعة البستاني المطبوعة في بيروت.

ويعمل الكثير من أهالي عنيزة بتجارة الخيل والإبل والأثرياء منهم يملكون الأراضي والمزارع. ومن يذهب منهم إلى مكة عادة يشتري من هناك عبيداً يبيعهم في القصيم أو العراق ويحصل جراء ذلك على ربح جيد. وقدر داوتي عدد التجار المعتبرين في عنيزة بحوالي ١٥ شخصاً. وقال له عبدالله الخنيني إن ثروة أكبر التجار في عنيزة تقدر بحوالي ٢٤٠٠٠ جنيه. وقال بأن أرباح القرض لمائة ريال قد تصل إلى ٢٠٪ إن دفعت نقداً أو من ٢٠ إلى ٥٠٪ إن دفعت تمراً أو قمحاً. وقد أبدى الخنيني وغيره من الفلاحين وملوك الأراضي اهتماماً خاصاً بطرق حفر الآبار الارتوازية ومواطير الضخ ليستعصوا بها عن السواني التي لا تجذب من ماء البئر ما يكفي لري المزارع الكبيرة مما اضطرمهم إلى تقليص المساحات المزروعة إلى ما يقارب ثلاثة أكرات أي حوالي ١٢٠٠٠ متر مربع. وقد اصطحب الخنيني داوتي إلى مزرعته "المعياوية" التي تقع في حارة الجناح وراى هناك عربة بعجلات تستخدم لنقل التربة والسمادة في المزرعة، وهي العربة الوحيدة التي رآها داوتي في نجد. وقال إن عربة في نجد شيء أغرب من رؤية بعير في شارع بيكادلي بلندن.

في صبيحة اليوم الثاني ذهب داوتي مع علي الشحيثان لتناول الإفطار عند الأمير زامل وجلس ثلاثتهم، الأمير وداوتي ورجل الأمير على المائدة. وتعجب داوتي من دماثة خلق الأمير وبشاشته في التعامل مع خادمه على قدم المساواة دون تمييز أو تعالي. ويتألف الفطور من خبز التنور والرطب واللبن

ويمتدح داوتي نوعية الرطب في عنيزة ويقول إن ربلا واحد يشتري ثلاثين رطلا من التمر. وفي الغداء بعث له الأمير برجل خروف قال إن قيمتها حوالي ٢ قروش. وقال أيضا إن البدو يجلبون إلى المدينة غزلانا يبيعون الواحد منها بسبعة قروش. وفي اليوم التالي جاء علي السليم، نائب الأمير، وطرد النصراني من الدكان الذي يقيم فيه لأنه دكانه ولا يريد أن ينحسبه النصراني. وبعد الظهر ذهب داوتي إلى بيت زامل لعرض الأمر عليه ووجده جالسا على عتبة الدار وقال له زامل لا نريد الدخول إلى القهوة لأنها مليئة بشيوخ البدو. وكان شيوخ مطير قد وفدوا على زامل في ذلك اليوم للتشاور معه في هجومهم المتوقع ضد قبيلة قحطان. كانت مطير موالية لعنيزة بينما كانت قحطان موالية لبريدة. ذهب زامل وداوتي يتمشيان حتى وجدا ظلا تحت أحد الجدران وجلسا على الأرض يتحدثان. رطب الأمير من خادمه أن يبحث داوتي عن مكان آخر يقيم فيه.

قدر داوتي سكان عنيزة حين زارها بحوالي ١٥.٠٠٠ وفي يوم الجمعة تزدهم الأسواق بالناس، خصوصا البدو والفلاحين الذين يقدون إلى المدينة من مزارعهم الثانية للصلاة في المسجد الجامع. وقال داوتي عن أهل عنيزة أنهم أناس متحضرون متأنقون في ملابسهم ومأكلاتهم وتعاملهم، وحتى طريقتهم في المشي والحركة ويحيون بعضهم بعضا بلطف وبشاشة، والبعض منهم يلبسون الطرابيش، خصوصا منهم التجار الذين يكترون من الأسفار إلى الخارج وبعضهم يلبس ما يسمى الشططة أو العقال المقصب بالزري. والأثرياء منهم يلبسون المشايخ المعمولة في العراق. وذوي المراكز الاجتماعية المرموقة يحملون الخيزران في أيديهم والأمراء يحملون السيوف.

ومن مظاهر التحضر التي لاحظها داوتي على أهالي عنيزة أنهم يتناولون طعامهم على مهل ويتحدثون ويتناقشون أثناء الأكل، على خلاف البدو وأهل نجد عموما الذين يترددون الأكل بصمت ويلتهمونه بسرعة وينهضون. وبعض أطباق الأطعمة التي يقدمونها قريبة من الأطباق الموجودة في الأمصار والعواصم المتحضرة، فهم يقدمون أطباقا من الفواكه والخضار النينة والمطبوخة ويدخنون النارجيلة ويشربون أنواع مختلفة من الشربيت والعصيرات المعمولة من الليمون ومن تمر الهند والتي يقول إنهم على خلاف الأتريبيين الذين يرتشفون عصيرهم ببطء فإن أهالي عنيزة يكرعون العصير في نفس واحد والخادم واقف على رأسك ليأخذ منك الكأس الفارغ. وعلى الرغم من تأصل شرب القهوة عند أهالي عنيزة إلا أن قبليبي سيذكر لاحقا أنهم لم يعرفوا الشاي إلا منذ ٢٥ سنة قبل وصوله لها. والبعض منهم لكثرة أسفارهم يعرفون لغات أجنبية مثل الإنجليزية والهندوستانية وفي مجالسهم يتباحثون في الشؤون الدولية والخلافات بين تركيا وروسيا وبين فرنسا وبروسيا ويعرفون بسمارك والإسكندر قيصر بروسيا.

وبعد يومين من إقامة داوتي في عنيزة جاء إليه عبدالله العبد الرحمن البسام رئيس بيت البسام وأحد التجار الذين يتاجرون مع مدينة جدة والصديق الحميم لعبدالله الخنيني حيث أن الاثنين لا يكادان يفترقان أحدهما عن الآخر. ويشكلان مع الأمير زامل فلاسفة عنيزة الثلاثة. كما يسميهم داوتي. ومن أصدقائهم أيضا شخص يدعي ناصر السمييري as-Smiry الذي يكبرهم سنا، وهو من أهالي عنيزة الذين يتاجرون مع مدينة جدة ويشترك مع الخنيني في تجارة الخيول. ويصف داوتي البسام قائلا إنه عريض الوجه سمح المحيا أتيق الهندام حلو الحديث فصيح المنطق لا يتلفظ إلا بالكلام الطيب. رجل عاقل وحكيم لكنه مع ذلك مرح وبشوش يحب الخير للجميع ويسارع إلى إسداء المعروف. حتى أنه كان هو الذي يتولى أمر إطعام وترحيل الجنود الأتراك الذين يقرون من الجندية ويمرون في طريقهم مدينة عنيزة. ويتمتع ابن بسام بسمعة طيبة في كل نجد ويحترمه الجميع. وكان

هو الذي سعى منذ سنتين إلى إبرام الصلح مع ابن رشيد وذهب هو وعبدالله اليحيي السليم والشيخ عبدالله ابن مريض إلى مخيم ابن رشيد ليقتنعوه بالانسحاب وقله الحصار عن بلادهم.

وتعرف داوتي على حمد اليحيي السليم الذي دأب على استقباله والاحتراف به في مزرعته وأبدى داوتي إعجابه الشديد بالتعامل اللطيف الذي حظي به من قبل أم حمد اليحيي. وقال إن يحيي، ابن حمد، الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً كان أمير حارة الخريزة سابقاً. وكان عبدالله اليحيي السليم، الابن الأكبر ليحيي، وعم زامل هو الساعد الأيمن للأمير زامل. ويقول داوتي إن بيت اليحيي لا يعرف التزمت ولا التعصب وإن يحيي بالرغم من كبر سنه قال لهم عن داوتي الذي يسميه أهالي عنيزة خليل: إن خليل مسيحي وكتاب المسيحيين هو الإنجيل الذي هو أيضاً كلام الله.

وتكلم داوتي عن العمال الذين يحفرون الآبار ويعملون في مقاطع الحصار، وقال إنهم يتقاضون أجوراً مجزية لكن العمل لمدة سنتين في هذه المهنة الشاقة والخطيرة كنيل بأن يؤدي بحياة الإنسان لأنهم يتنفسون الغبار المتطاير من المسخور مما يؤدي إلى تفتت الرئتين. معظم الأمراض التي يعاني منها أهل القصيم أمراض العيون والطحال والحمى والجذري، وأنواع عديدة من الأمراض الغامضة يسمونها ريج. ومرض الجذري كثيراً ما يؤدي إلى ذهاب البصر في أحد العينين أو كلاهما. ويقول داوتي إن طريقتهم الخاطئة في التطعيم أدت إلى وفاة ما لا يقل عن ٥٠٠ شخص.

وعلى الرغم من القلاقل بين مختلف المدن والقبائل في المنطقة إلا أن زامل بطبيعته رجل أمن وسلام لا يحب الحرب ويفزع دوماً نحو السلم لما يراه في ذلك من مصلحة للناس وتشجيع للتجارة والمسايلة. حب زامل للسلم ليس جبناً منه لكنه بطبعه ليس سفاهاً ولا يحب سفك الدماء. ومع ذلك يقول عنه داوتي إنه قائد شجاع ومظفر يعرف كيف يرسم الخطط الاستراتيجية، أثبت حنكته في أكثر من مناسبة، حيث كان قائد كتيبة أهل القصيم في الحملة السعودية ضد البريمي، وكذلك في حرب عنيزة مع محمد بن سعود وحريهم مع قحطان في كون نسخة.

يقول داوتي إن حلفاء عنيزة من البدو هم مطير وعتيبة، بينما يتحالف القحطانيون مع بريدة. وصدف أن فريقاً من قحطان نهب حميراً لأهالي عنيزة على أطراف المدينة، لذلك حينما هبط أحد القحطانيين للتبضع من عنيزة قام بعض الأهالي بإلقاء القبض عليه واقتياده للأمير. ويقول داوتي لو كان ذلك في حائل أو بريدة لقام رجال الأمير وجنوده بهذه المهمة، أما في عنيزة فإن الأهالي أنفسهم هم الذين يقومون بحفظ الأمن فيها ولكن بطريقة حضارية تخلو من العنف والغلظة.

وفي آخر أيامه بدأ داوتي يشمر بمضايقة الناس له ويقول بأن إمام المسجد صار يحرض الناس ضده فصار الأطفال يرمونه بالحجارة أينما ذهب وتكر له العديد من الأصدقاء والناس الذين قال إنه لم يتوان في السابق عن تقديم العلاج لهم. وكان علي السليم، نائب الأمير، وعبدالله ولد زامل هم أكثر من سبب له المتاعب. ولم يملك الأمير زامل ولا الخنيزي والبسام أن يفعلوا شيئاً لمساعدة داوتي خوفاً من الرأي العام في المدينة. وفي ليلة من الليالي أجبره الأمير علي على مغادرة عنيزة وأوعز إلى أحد الجماميل أن يذهب به إلى مدينة الخبراء، وهذا مما ضاعف قلق داوتي حيث أن الخبراء كانت تابعة لمدينة بريدة، إلا أن معاملة أمير الخبراء عبدالله العلي له، على خلاف الأهالي، اتصفت بالتسامح خصوصاً وأنه يطمح أن ينجح داوتي في علاج عيون أبيه الذي كان قد فقد البصر. وبعد ثلاثة أيام من إقامته في الخبراء أرسل الأمير زامل يستدعيه ليعود إلى عنيزة من أجل الذهاب إلى جدة مع قافلة السمن التي كانت تستعد للانطلاق إلى الحجاز. ولم يسمح زامل لداوتي أن يعود إلى داخل المدينة وإنما أسكنه في بستان يقع خارج المدينة في انتظار مغادرة القافلة، وهذا البستان الذي يقع

إلى الجنوب قليلا من العيارية يعود إلى تاجر من أهالي عنيزة اسمه رشيد. كان رشيد، صاحب المزرعة غانبا وتولى أخوه إبراهيم الاهتمام بها، كان إبراهيم هذا ممن شاركوا في حفر قناة السويس مع آخرين من عنيزة وبقيّة بلدان القصيم. وكان ابن بسام والخفيني هما اللذان أقنعا زامل بأن يستدعي داوتي من الخبراء ليسكن في ذلك البستان خارج المدينة تجنباً للشغب حتى يحين موعد انطلاق قافلة السمن، وقد أمضى داوتي ستة أسابيع في مزرعة رشيد التي تبعد حوالي ثلاث كيلوات عن عنيزة في انتظار مغادرة القافلة الذي تأجل إلى ما بعد معركة بخرة بين أهالي عنيزة ومعهم مطير ضد قحطان والتي سقط فيها شيخ قحطان حزام بن حشر، وهو الذي رثاه حويدي العاصمي القحطاني بقصيدته المشهورة:

رحنا وخلينا وديع الحفايا // على نفي مع ايسر القور نزال
حطوا على قبره رفيع البنايا // ورحنا منه مع طلعة الشمس حوال
لى واجعلنا اللي يشيل الروايا // لى قربوا للشيل وثبات الاجمال
لو كل الاربوع من خوفه نعايا // ما هوب من كثر التعاليق ملال
غدى بيوم لا سفته الروايا // من فوق عد جنبه كل همال

وحتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين ظلت عنيزة محتفظة بتخطيطها العمراني وبيئتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها تماما كما وصفها داوتي. فقد ظلت الحارات والشوارع والمزارع والأسواق التجارية محافظة على سماتها وأسمائها. من الحارات التي ذكرها داوتي ولا تزال على قيد الوجود بأسمائها القديمة الخريزة وام حمار والجديده والضليعة والعقيليّة والشعبيّ والجناح والملاح والضبط والسفيل والوشلان. وتفصل بين هذه الحارات مساحات من المزارع وتتخللها الأزقة الضيقة التي تغطي معظمها أشجار النخيل وعادة ما يفصل الشارع بين جزئي البيت اللذين يصل بينهما جسر يسمونه "قبة".

ومن الأسواق التجارية يذكر داوتي المجلس والحيالة والمسوكف والقاع وام العصافير والدكاكين لها عتبات يعرض عليها البائع سلعته في محادر وأوعية من الخوص، كما يجلس أصحاب التاجر ورفاقه على هذه العتبات للتحدث معه ولتنشيط حركة السوق من خلال مساوماتهم مع الدالين الذين يذرعون الأسواق جيئة وذهابا يخرجون في مزاد علني على ما يحملونه معهم بأيديهم من بواريد ورماح ودلال لعمل القهوة وعباءات وغيرها. ويصف داوتي الحركة التجارية والصناعات التقليدية في عنيزة قائلا إن الحرفيين من الصناعات يصنعون الأسلحة والأواني المنزلية، وهناك النحاسين والصاغة والنجارين الذين ينتجون الصحف والأبواب وأشدة الإبل والمحال والدراج للسائية، ومنتجاتهم تفي بالغرض لكنها تفتقر إلى الأناقة لبدائية المعدات والأدوات التي يستخدمونها. وهناك من يعملون بقطع الأحجار وحفر الآبار والفروش المستخدمة في لوازم الفلاحة مثل اللزا والساقى. وهناك من ينحتون من الرخام ما يسمى نقيرة وهي على شكل هاون يستخدم لسحن البن والهيل والبهارات، إضافة إلى البنانيين وعمال الجبص، وكذلك الخياطين والمطرزين والخرازين، واكتسب صناعة عنيزة شهرة في الحجاز لإتقانهم فن النقش والزخرفة على الذهب والفضة.

ومن ضمن البضائع المتوفرة في أسواق عنيزة، إضافة إلى باعة الأطعمة والمأكولات، يجد الإنسان مختلف أنواع الأعشاب والأدوية المستخدمة لعلاج البشر والحيوانات، وكذلك السكر ومختلف أنواع البهارات والأبازير والأطياب والصابون الشامى (أبو عنز) الذي تجلبه قوافلهم من مكة والمدينة. وفي مكان منعزل يجد المرء أسواق الحريم حيث يباع البصل والبيض والملح والكبريت والمسامير والخبز

والثين. وفي يوم الجمعة تغص الأسواق والمجلس بالنساء المحجبات اللاتي يجلبن مختلف أنواع الطيور من حمام ودجاج ومنتوجات زراعية، إضافة إلى القرب المدبوعة والصملاان. سوف نتحدث عن فيليبي وانطباعاته لاحقاً لكن لا بأس هنا من استباق الأحداث لاستكمال المشهد التجاري في المدينة. كانت قد اتفقت زيارة فيليبي مع حلول عيد الأضحى ورأى كيف تجلب الأغنام إلى سوق المدينة والتي تتراوح أسعارها من ٧ إلى ١٠ دولارات. ويقول فيليبي إنه رأى دلالا يجلب بندقيتين أحدهما ماوزر ألمانية صناعة ١٩١٦ قيمتها ٤٠ دولاراً والأخرى أم نصف خشاب إنجليزية جديدة قيمتها ٤٦ دولار. ومن أنواع البنادق الأخرى التي رآها فيليبي مع الدلالين الشرقي الانجليزية والصمعا وام احدعش وام تاج.

تختلف ظروف مجيء جون سانت فيليبي إلى عنيزة عن ظروف مجيء داوتي. قدم فيليبي إلى عنيزة ضمن موكب الملك عبدالعزيز الذي كان حينها قد أحكم قبضته على كامل منطقة القصيم ويخوض معارك ضارية مع ابن رشيد في نواحي جبل طي. ومع ذلك جاء فيليبي إلى عنيزة يقتبع خطى سلفه داوتي يحدق في الوجوه ويفتش في الأماكن بحثاً عن نكريات داوتي، وقد وجد أن أسطورة داوتي، كما يقول، لا تزال عالقة في الأذهان، ومن يقرأ مذكرات فيليبي يحس وكأن داوتي يطل عليه من عل ويشير إليه من بعيد ليرشده أين يذهب ومن يقابل، لذلك جاءت مذكرات فيليبي لتؤكد ملاحظات داوتي وتسد بعض الثغرات فيها وتلقي أضواء كاشفة على ما يعترىها من غموض أحياناً وربما افتراء على بعض أهل المدينة أحياناً أخرى، فتعرف مثلاً من فيليبي، وليس من داوتي، أن البستان الذي أمضى فيه داوتي ستة أسابيع نبي انتظار مغادرة قافلة السمن المنطلقة إلى الحجاز كان يقع في الملحق وأن المزرعة التي تولى عنه عندها رفيقه الجمال الذي أحضره من بريدة إلى عنيزة هي مزرعة إبراهيم السيف. كما نعرف أن السبب في شن المطاوعة حملة على داوتي هو مجاهرته بنصرانيته وعدم مراعاته البتة لمشاعر الناس الطيبين البسطاء، والأهم من ذلك أن مجيئه تزامن مع حلول وباء الجدري مما اعتبره البعض غضباً إلهياً بسبب استقبالهم لذلك الكافر، كما يقولون. وقد قال عبدالله الحمد السليم لفيلبي أن داوتي كان يفتقر إلى الحنكة، فلما أنه مثلاً إذا طلبوا منه أن ينهض للصلاة بدلاً من أن يجاهر بنصرانيته قال: حلت البركة، وأمر بخير، أسلم من أذى الناس.

في ٢٣ أغسطس من سنة ١٩١٨ حط فيليبي رحاله في عنيزة بمعية الملك عبدالعزيز الذي كان في طريقه إلى بريدة. وأمضى فيليبي في عنيزة ثلاثة أيام ليلحق بعدها بالملك عبدالعزيز الذي كان قد سبقه إلى بريدة وبعد عشرين يوماً عاد فيليبي من بريدة إلى عنيزة يوم ١٢ سبتمبر ليلقى فيها حتى ٢٤ سبتمبر، وقد حل ضيفاً على محمد بن سليمان الحمدان. يبدأ فيليبي حديثه عن عنيزة قائلاً:

سبق لي أن سمعت الكثير عن الفرق بين عنيزة وغيرها من مدن نجد، عن كرم أهلها وحفاوتهم بالغريب وخلوهم من أي تعصب ديني أو مذهبي، لكن يجب على أن أعترف بأن التجربة الواقعية أدهشتني وأذهلتني. بدا لي أنني فجأة خرجت من عالم بدائي لاكج عالماً متحضراً يمتلك ثقافة عالية حيث يلقي الغريب داخل أسوار المدينة فوق ما يتصوره من الترحيب وحسن الضيافة بدلاً من أن يكون محل شك أو ريبه وكأنه ضيف على سكان المدينة جميعهم. ويبالغ أحياناً في إغداق كرمهم عليه دون رجعة أو هداية. وضيافتهم ليست فقط سفية ولكنها أيضاً في منتهى الذوق والترتيب والأناقة. إنها حقاً جوهرة المدن العربية
gem among Arabian cities

ولعلنا نذكر بأن فيليبي، وليس الريحاني، كما يعتقد البعض، هو أول من أطلق لقب باريس نجد على مدينة عنيزة. وقبل فيليبي أطلق داوتي على عنيزة اسم "أم نجد".

حينما وصل فيلبي إلى عنيزة كان أميرها السابق عبدالعزيز العبدالله السليم قد تنازل طوعا منذ سنة عن إمارة البلد لابن أخيه عبدالله الخالد البالغ من العمر حوالي ٤٠ أو ٤٥ سنة والذي كان أول من دعى فيلبي لتناول القهوة والإفطار في منزله. وبعد مراسم الاستقبال انتقل الأمير وضييفه والحضور إلى المختصر لنفث الدخان، ويقول فيلبي أنه لأول مرة رغم طول إقامته في نجد يمر بهذه التجربة التي يسمح له بها بالتدخين. وقد أمضى الأمير عبدالله الخالد ١٤ عاما فارا من عنيزة أثناء فترة استيلاء ابن رشيد على المدينة من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩٠٤ وأثناء هذه الفترة زاول التجارة وتنقل في عدة بلدان وزار الهند. ويصف فيلبي الأمير السابق عبدالعزيز بأنه شيخ طيب المعشر عمره حوالي ستين عاما تعاير وجهه المستدق تبعث منها الحكمة وتبعث على الارتياح والإطمئنان. وحينما سألهم فيلبي عن الكابتن شكسبير الذي مر بعنيزة قال الأمير عبدالعزيز إنه لم يقابله لأنه كان خارج المدينة مع الملك عبدالعزيز في أحد غزواته وكان أناب عنه في الإمارة صالح بن زامل الذي استشهد بعدها بعام واحد مع شكسبير في وقعة جراب. لكن الأمير عبدالعزيز يتذكر داوتي حيث كان عمره آنذاك عشر سنوات. كما كانوا لا زالوا يتذكرون الرحالة الفرنسي تشارلز هيوبر.

ومن ضمن من استقبلوا فيلبي ذلك اليوم محمد السليمان الحمدان شقيق عبدالله السليمان وزير المالية الذي دعاه لتناول القهوة وقد لاحظ فيلبي أن أثاث منزل محمد السليمان كان أفخم بكثير من أثاث بيت الأمير. كما تناول فيلبي القهوة عند عبدالرحمن عبدالعزيز الزامل، حفيد الأمير زامل الذي كان عمره ٢٥ عاما. ويقول فيلبي عن عبدالرحمن عبدالعزيز الزامل

حسبة حفيد زامل هذا دائما تبعث السرور والبهجة في النفس، ضيافته لا تكلف فييا ومن شخص صريح وشفاف مما يحضر إلى ذهني تلك الصورة التي رسمها داوتي للأمير زامل وإن كنت قد سمعت بأن أقرب الأحياء شبها في الخلقة إلى زامل إنه محمد وحفيده زامل الصالح.

ومن أحفاد زامل الذين التقاهم فيلبي عبدالله ومحمد أبناء علي الزامل الذي قتل في معركة المليدا والتي قتل فيها أيضا خالد أبو الأمير عبدالله. ومن ضمن من قابلهم فيلبي أيضا محمد وإبراهيم أبناء الأمير زامل وقال عنهما إنهما كانا على نقيض أبيهما فيما يتعلق بالتسامح والانفتاح.

وقابل فيلبي إبراهيم الحمد السليم وأخيه عبدالله الذين كانا في شبابهما من ضمن قافلة السمن التي اصطحبها داوتي إلى الحجاز. وقد سافر عبدالله في شبابه إلى كراتشي ويومبي والبحرين ومسقط. كما قابل فيلبي علي الصالح الخنيني ومحمد الحمد الخنيني، حفيد عبدالله الخنيني صاحب داوتي. ومر فيلبي من عند منزل عبدالله الخنيني الذي طالما استقبل فيه داوتي لكنه وجدته قد تداعى وتهدم. وتكر فيلبي أن عائلة الخنيني اشترت بستان نخيل في البصرة اشترته منهم فيما بعد القوات البريطانية ودفعت لهم قيمته ٤٠٠.٠٠٠ ريال لتقيم مكانه محطة توليد كهربائية.

ومن ضمن من احتفوا بفيلبي سليمان وعبدالعزيز الذكر وأبيهم يحي الذكر الذي كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما وأخيه مقبل الذي عاد منذ فترة قصيرة من البحرين ومنطقة الخليج حيث أقام هناك لمدة ٢٥ عاما يرعى مصالح الأسرة هناك. ويقول فيلبي عن عائلة الذكر أنهم شرفوا وغربوا في كل أنحاء العمورة، مثلهم مثل غيرهم من العديد من عوائل القصيم، ومنهم حمد بن محمد الذكر الذي سبق أن قابله فيلبي في العمارة بالعراق. ويقول فيلبي إن الملك عبدالعزيز تزوج بنت أخ مقبل الذكر ورزق منها بنتا. أما يحي الذكر فقال فيلبي إن عمره ٨٠ عاما وقال عنه إنه أصم كعمود الرخام. لا يسمع. قال له الدكتور عبدالله سعيد الذي كان يرافق فيلبي مازحا: لا أستطيع علاج الصمم الذي

تعاني منه ولكن إن كنت ترغب في جرعة من المنشطات الجنسية فعندي لك ذلك، فأجابه الشيخ يحي مبتسماً: الحمد لله لم يحن الوقت بعد لذلك ولا أحتاجها الآن. وقابل فيليبي إبراهيم القاضي، أخو الشيخ صالح القاضي الذي كان آنذاك يغتي ويؤم صلاة الجمعة، كان إبراهيم شيخاً متقدماً في السن لكنه نشيط وقوي البنية بسبب مواظبته على ممارسة الرياضة. وله ابن عم آخر اسمه أيضاً إبراهيم اشتهر بالعلم لكنه لم يرغب في مقابلة فيليبي.

ومن استضافوا فيليبي فهد عبد الله البسام وهو شيخ كبير وبيته من أجمل بيوت المدينة وقال لفيلبي أنه لطالما شاهد داوتي يحضر لتناول القهوة مع أبيه في ذات المجلس الذي كان آنذاك يجلس فيه مع فيليبي. يقول فيليبي إن فهد كان طفلاً صغيراً أثناء وجود داوتي في عنيزة ولصغر سنه كانت نساء البسام يرسلنه للتخصص لمعرفة من أي جهة من الصحن يتكلم داوتي ليتجنب النساء أكل الطعام من ذلك الجانب ليغرفونه ويروونه لاقطط اعتقاداً منه بنجاسة النصراني. وقابل فيليبي أيضاً عبدالرحمن البسام، أخا عبدالله البسام، صديق داوتي. وقال عبدالرحمن لفيلبي إن أخاه عبدالله دأب لعدة سنوات على جمع مواد ومعلومات ليؤلف موسوعة لاستعماله الشخصي. ويعد محمد البسام، آخر فهد، من أكبر التجار في دمشق.

ومن استضافوا فيليبي صالح الفضل وهو رجل شهم ومرح. وكان صالح أتى من الرياض لما علم أن الملك عبدالعزيز سوف يتوقف في عنيزة ليرجوه التوسط لدى الشريف حسين ليطلق أخاه وابن أخيه من الحبس في جدة، وكان الشريف حبسهما فقط لأنهما من رعايا ابن سعود. وعائلة الفضل لهم أملاك وتعاملات تجارية واسعة مع الهند وباكستان. وقابل فيليبي فاضل الشبيبي وأخيه سليمان وقال إنهما تأثرا في طباعهما رلبسهما بأهل العراق لطول إقامتهما هناك.

كما قابل شيخ يبلغ السبعين من عمره هو البناء المشهور إبراهيم بن صالح الذي بنى معظم بيوت أثرياء عنيزة وبنى منذة الجامع منذ ٢٨ سنة وتقاضى مقابل ذلك مبلغ ٤٠ ريالاً وقال إن طولها ٥٠ ذراعاً أو ما يعادل ٨٠ قدم. ويفخر بأن جميع البيوت التي بناها لم تسقط ويدعي بأنه أكثر مباررة من ابن سلوم البقاء المشهور في منطقة سدير والوشم.

وفي يوم ١٩ سبتمبر دعى الأخوان عبدالله وعبدالرحمن البسام فيليبي لمصاحبتهما في رحلة إلى مزرعتيهما النهيرية والرمحية اللتين تقعان على حدر المدينة. وهناك قدما له مختلف أنواع الرطب من أنواع من التخليل كانوا قد جلبها من البصرة وهي البريمي والحساوي والبرحي وهناك شاهد أول برحية نقلها البسام من البصرة إلى عنيزة منذ ٢٥ سنة. كما نقل البسام من الزبير إلى عنيزة بعلج الفريدون الحلو الذي يتفوق في حلاوته وطعمه على الأنواع المحلية. وبعد الغداء أطلع عبدالله البسام فيليبي على مجلد أثيق يحتوي على مشجر كامل لنسب حمولة البسام الذين هاجروا من موطنهم الأصلي أشيقر بسبب قلاقل حدثت هناك ليستقروا في عنيزة سنة ١١٧٣هـ، وكان أول من انتقل إلى عنيزة هو جدهم حمد البسام.

وعن الأمراض في عنيزة ذكر فيليبي الجدري وقال إن ضحاياه بمعدل أربعة أطفال يومياً. ومن الأطباء الشعبيين الذين قابلهم فيليبي في عنيزة سليمان السعيد وقال إنه بالإضافة إلى الأمراض العصبية يعالج المجانين والمختلين عقلياً. وكان في بداية حياته عمل تاجراً في البصرة وأمضى هناك عشرين سنة وما توفي أبوه قبل راجعاً إلى عنيزة ليرث مهنة الطبيب عن أبيه المتوفى دون أن يتلقى أي تدريب عدا كونها مهنة أبيه من قبله. وقال له أنه قلما يتقاضى أجراً على عمله، والمرّة الوحيدة التي تعدى فيها أجره كلمة شكراً كانت حينما عالج مبارك الصباح في مرضه الأخير الذي أدى إلى وفاته.

وبعد مدة وجيزة من مغادرة قبلي عنيزة زارها أمير الريحاني ولم يرد ذكر قبلي في كتابات الريحاني لكنه يذكر داوتي كثيراً، وهذا يحملني على الظن بأن كتاب داوتي الرائع في صحراء العرب هو الذي ألهم خيال من أتى بعده من الرحالة ودفعهم إلى اقتفاء أثره. يدخل الريحاني عنيزة من حبتها الشرقية على طريق الزغبية مروراً بالعوشية، والعوشية قرية صغيرة معزولة لكنها أشبه بان تكون هي بوابة عنيزة الشرقية، فقد مر بها قبلي أيضاً وتكلم عنها كلاماً جميلاً، يقول قبلي إنه لما وصل مع رفاقه إلى لعوشية وجد قطعاً من الأغنام يبلغ عددها ٦٠٠ رأس تشرب من الماء أحبره الرعاة الثلاثة أنها للملك عبدالعزيز وبها في طريقها إلى محبته في بريدة يقول قبلي أخذنا رجالاً عند قصر منقرن هو الوحيد في القرية ولسوء حظنا كان صاحب القصر قد ذهب إلى عنيزة لقضاء بعض شؤونه مما دعانا إلى اليأس من أن نتناول القهوة عنده وننال قسطاً من الراحة لكن طوبنا السنية تددت حينما أقبل علينا ابن صاحب القصر الذي لا يتعدى عمره عشر سنوات والذي ما أن علم بأنه أنهكنا التعب حيث أمضينا اليوم كله على الطريق حتى حيا بنا ورحب بشاشة وشبابه كما لو كان رجلاً بالغاً من خبرة الرجال ودعانا إلى الدخول إلى القهوة التي تطفأ العتمة وغطى حדרها السواد حيث لا يوجد فيها مفد واحد المدخان عدا فتحة صغيرة في الجهة الأخرى من السقف المعيدة عن موقف الدار وما أن استقر بنا المقام حتى تقطر علينا رعاة العجم والعديد من شباب القرية الذين لم تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة وتحلقوا حول هذا الصرافني العريب الذي مزل عليهم فجأة من حيث لا يدرون لكنهم كانوا في منتهى التذلل وأمدونا بالكثير من المعلومات المفيدة وماء العوشية مالح لا يستساغ لا للشرب ولا للطبخ ويجلبون ماءهم من أبار الزغبية التي تبعد عنهم حوالي خمسة أميال، وصادف لحظة وجودنا بقاء الماء عندهم لذلك استعمار الصبي شيئاً من مشاي في القرب ليعد لنا القهوة وعلمنا فيما بعد أن صاحب ذلك القصر هو علي المطرودي

ويقول الريحاني

العوشية قرية صغيرة حقيرة فقيرة لأن ترمتها بسبب هذا القاع جلباً سبخة لا يصلح ررع أو غرس فيها ولكن أهلها ملح الأرض حاساً وجيهم يدعوننا للقهوة - تعصلوا بجهريكم - فقبلنا شاكرين جلسنا حول الموقد على الوسائد ورب البيت يحدثنا بينما هو يعمل القهوة، ثم أشعل السميل ودخن وقدمه لهذلول فاداره على الربع ثم جاءنا بحبيص يدعونه عبيطاً يعملونه من التمر والسمن استلذذته واستعدته فضحت العوسجي الكريم وأثنى على حريتي قائلاً كأنكم من القصيم جاء هذا العربي لفاصل في المساء يرد الزبارة ويشرب القهوة فازددت إعجاباً به وبكرم أخلاقه إذ قدم للربع شيئاً من التبغ واعتذر قائلاً: لولا قلته والله زودكم منه

وكانت ضافة العوسجي فاتحة الصافات في الأيام التالية بعيزة ملكة القصيم. بعيزة حصن الحرية ومحط رجال أبناء الأمصار بعيزة قطب الذوق والأدب، باريس مجد. وهي أجمل من باريس إذا أشرفت عليها من الصغرى لأن لس في باريس مخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النعود بل هي أجمل من باريس حين إشرافك عليها لأنها صغيرة ودينة خلابة بألوانها، كأنها صوردها كلود مانه Claude Monet لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد بل قل إنها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبداً بين النخيل، زائفة بإقريض من ذهب الرمال، وكللتها مأكبل من الأثل هي في مجوف من الأرض يحيط بها عاب من هذه الأشجار ليرد عنها رمال النعود التي تهددها من الجهات الثلاث، من الشمال والغرب والجنوب قلت مرة لأهلها أنتم والنعود قوم، عاصموا بالكلمة وتناقلوها إنها الحقيقة ولا مبالغة فالنعود تحارجم بالرمال

تدفع الرياح من كل جانب فتسقيها على المدينة، وهم يحاربونها بالآل يزرعونه غياصا فوق الكُتب
 خرج السور

قد يصغر عنيرة دون أهلها، وهم رهاء ثلاثين ألفاً، لأن انقود تفيدها فلا تستطيع التمسيد والاستداد
 فهي لذلك مريحة بالسكان وأكثر أسواقها كالسرايب لأنهم يبنون فوقها السور التي يسمونها
 قُتب وعوق الجسور السود ولكن هناك سوراً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الأشكال
 والألوان فتذكرك بأميركا وبلاد الإنكليز، وتنفك إلى الهند واليابان، وتسمعك الألعاب الإنكليزية
 والفرنسية والهندوستانية، ولحجات من العربية متعددة

وفي عنيزة أسر قديمة عربية بالنسب والفصل وقد ساج أسوارها في البلدان القصية والامصار شرفاً
 وعرباً فواديهم السياحة بضعاً وبصاعاً، فدعوا الصياغة إلى مقام تنفع عنده أبواب البيوت والقرب
 معاً أهل، إلى لغريب ليس في هذه المدينة كونه غريباً، فسراء أكار مسلماً أم كافراً، صوحداً أم
 ممركباً، فهو ينسعر ما به بين أناس القوا مثله والغيا فوق ذلك إكرام الصنف أياً كان
 فيستأنس أيما استغناس ويولي دعوانهم سروراً شاكراً

بفصل بغير هي دعوة شبيهة بدعوة الإنكليز للشاي وهي لصيف فتي شيء غير القهوة وغير
 الشاي جميل، فيها ميل إلى الحديث والتعارف، ورغبة في الألفة والوداد على أن صناعة العربي
 العنيزي تمتاز عن صناعة الإنكليزي في أن رب البيت يخدمك بنفسه من جبر الاستقبال إلى حين
 الوداع وما أجمل ذاك لكرم وتلك الرعاة ولا سيما أن الضيقتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج إلى
 إلهيه لمزيدما

إن دعوة الاستقبال عندهم تدعى القهوة وهي عادة طويلة سسيحة عالية سعوية، وقد سقت سحش (الآل)،
 عام على أعمدة من الحجر مطية ببعض، لها نوافذ مريحة الباعدة فوق الأخرى، العالية للدخان
 يخرج منه والواظنة للهواء وعلى حدرانها رسوم هندسية مفشت بالجص فوق أرضية من الطين
 وفي الصور مجوف مستطيل لا يزيد إذا كمر على اثلاثة الأذرع هو الموقد يحلحس عنده رب البيت
 ويجلس إلى جنبه ابنه أو أخوه أو أحد من أهله، فينشئ لواحد يحمل القهوة والآخر يدق البن في
 جبر من أحجر كبير شبيه بجبر الكنة في لبنان، إلا أن قطر ثقبه لا يزيد كثيراً عن قطر الهارس
 وبعد رأس الموقد خزانتان وحدة للحطب والأخرى للمعامين هما قد بد الهالس هناك فلا يصطر ان
 يعف ليداول شيئاً مبيحاً وأهم من كل ما ذكر الاناريق، وهي حيدر الدعوة وركن الصناعة المادي،
 أناريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من العمل في دمشق، وقد صنعت أمام المضيف
 صفا متناسقاً من الأول الصغير الذي يكفي صيفين إلى العاشر الذي يسقي مدة صيف ويريد هذه
 هي القهوة عندهم وهي في شكلها ورسومها ولون حدرانها وسقفها العالي وبورها اللطيف لذي
 قلما يمارحه نور الشمس، تعدد إلى ذهاب صورة سعيد من معابد الأقدمين فتحدثك بجلال العنق
 والقدم

قال هنري دوي في كلامه عن عبدالله السام «وكان لجريه صوت شجي كأنه جرس الصياغة يدعو
 الناس للقهوة»

عبد العزيز بن عبدالله آل سليم اصافنا مرات بين الصلاتين وبعد ما أصلاً ومساء، لا نسمعنا حديثه،
 وما أحلاه، بل نسمع حديثنا وكنت من باب حب الذات والاستفادة أماره في الساعات، فنتقل من
 الجغرافية إلى الزراعة، ومن «أمريكة» كما كان بلعظياً إلى بلاد طي، ومن الأطباء إلى الشعراء
 هذا عبدالله بن خالد آل سليم أمير عنيزة وقد أنزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثاً لعظمة

السلطان عبدالعزيز، ومد لنا في بيته سماعاً اردحت فيه الأكوان، وأنارته من شيم الامجد البشاشة والوقار وهذا عبدالله بن محمد آل بسام له مزرعة خارج المدينة يشتغل في رفع المياه من البئر عشرة جمال، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء.

أما في التساهل الديني فدين أهل عنيزة اليوم واجدادهم بون شاسع، ليس في عنيزة اليوم من يضرب بالعصا من لا يصلي، فيسوق إلى المسجد كالانعام من لا يلبيون دعوة المذن. وليس في القصيم كله من أولئك الوهابيين، أمثال الإخوان اليوم، الذين اضطهدوا «المصري الكافر» منري دوطي وطروده من البلدة لم يجد الرحالة الإنكليزي يومئذ عبر بصعة رجال والوه، وأضافوه، وساعدوه في محنته، أهميم ثلاثة هم أمير عنيزة يومئذ وعبدالله اخنيبي وعبدالله البسام وقد ذكرهم دوطي في كتابه بالخير نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً

حدثني صديقه عبدالله قال كنت شاباً يوم جاء «خليل» إلى عنيزة وكان الخنيبي أكبر أصدقائه ومساعديه فاعضب سكان المدينة فسبوه وتجنبوه. قالوا إنه كافر مثل الإنكليزي وما قد مر خمس وأربعون سنة وأنا أشاهد التطور عندنا. نعم الفرق كبير. ثلاثة يومئذ والوا الغريب علناً وأكرموا، ثلاثة فقط أما اليوم فلم يعد «خليل» إلينا لما وجد ثلاثة يسيئون إليه فعلاً أو قولاً أهل عنيزة اليوم يعضون لأقل إسائة تلحق بالغريب في بلدهم

هذه مقتطفات يسيرة مما ذكره الرحالة الأجانب عن مدينة عنيزة وأهلها راعيت فيها الاختصار والاقتصاد حتى لا ينطبق علي المثل القائل قال من مداحته قال أمه ومشاطته وقد مر على عنيزة رحالة كثر منهم من مر بها مرور الكرام مثل الرحالة الفرنسي تشارلز هيوبر والرحالة الألماني حوليرس بونتغ والإنكليزي شكسبير، ومنهم من أمال الإقامة فيها وأسهب في الحديث عنها مثل أولئك الذين تحدثنا عنهم. لكن الرحالة الذي خلدها هو تشارلز داوتي الذي كتب عنها أربعة فصول تقع في حوالي منتي صفحة مليئة بالتفاصيل والمعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تسجل لأول مرة وتكاد تكون هي الوثيقة الوحيدة التي لدينا عن عنيزة من تلك الفترة ويكل هذه التفاصيل. والأهم من ذلك أن داوتي سجل اسم عنيزة في التاريخ كحاضرة للتسامح الديني والاجتماعي في نجد، وتبعه في ذلك كل من جاؤوا بعده وتتمى على أهل عنيزة أن يحافظوا على سيرة الكرم والتسامح والانفتاح التي حققت لمدينتهم سمعة عالمية وأن يكرموا سباقين إلى تاصيل هذه المثل في المجتمع السعودي وربما يكون من الجدير بهم أن يؤسسوا في مدينتهم جمعية لهذا الغرض تكون مربوطة بالمشاطات الثقافية والسياحية، كما قد يكون من باب رد الحميل لو سمو أحد الشوارع الصغيرة أو أحد صالات مركز ابن صالح الثقافي باسم داوتي

والآن اسمحوا لي أن أنهى هذه المحاضرة بمقتطفات من جزء من كتاب داوتي أفلى أنه أكثر الأحزاء إثارة ومتعة هو الجزء الذي يصف فيه رحلة قافلة السمن من عنيزة إلى الحجاز وما لاقوه في تلك الرحلة من مخاطر الطريق ومشاق السفر.

داوتي يصطحب قافلة السمن المنجبة من عبيرة إلى الحجار

يكرس داوتي الفصل السادس عشر في الجزء الثاني من كتابه للحديث عن قافلة السمن التي يصطحبها من عبيره إلى الحجار، لكنه أورد في نهاية الفصل الخامس عشر ندبا ثمهد لما سبني، مثل قوله إن عبيرة وحلعاها من مطير كانوا في حالة حرب مع قبيلة قحطان لكن الأمير زامل أجل أواحبة معهم حتى عدم القافلة القادمة من الشمال، كما أهل معادرة قافلة السمن إلى مكة إلى عا بعد المعركة وبعد ذلك يقول داوتي في الفصل سبعة، والآن بدأ الحماميل في عبيرة يستظهرون عدتهم بيهيؤونها، حيث أن قافلة السمن المنجبة إلى مكة سوف تنطلق قريبا بعد حصاروا ارمم، وهي الإبل المعدة لحمل الأثقال، من مراتعها في ثيابه وأصبحنا شاهدا كل يوم وفي دروم في مراعي النفود المحيطة بالبند وكان قد عادر في تلك الأيام قافله تحمل النمر والحبسة إلى البويرة ويحدد داوتي عن توقف قافلة السمن خارج مدينة عبيرة ومحيي حمد اليحي إلى هناك ليودع داوتي وكان حمد هذا ممن حضروا موقعة سحنة بين عبيرة ومطير من جهة وقحطان من جهة أخرى على فرسه، يقول داوتي

حاجي راكمنا على فرسه نفوذ فلوا صعبا قال لي إنه وجدته مربوطا في أحد بيوت قحطان فجاء به معه ومال لي، ليبرر فعلته، والا كان مات ويحري القلو ويلعب وراء الفرس التي لا حليب فيها، كما لو كانت أمه لجنون وتست الفرس ذلك القلو الغريب وتدير عنقه نحوه لترثو اسمه، تنخر له بعطف شديد

بعثينا سويه رحدثني حمد عن لقائهم مع قحطان. قال بأنه ركب فرسه متسلحا بسدقيته أم بطنين لكنه استكى لي أنه كان من الصعب إعادة تأخير البارود من على ظهر الفرس قلت سبب ذلك أنكم تركبوا الحيوول معروة ظهورها ما عدا المعرقه ولو استخدمتم الركاب لسهل عليكم ذلك ووافقي على صوره رأيي قال بأن غبار المعركة كان من الكثافة بحيث ان رؤية علم يتمكن من تقدير عدد سوت القحطانيين لكنها ربما بفت في رأيه ٢٠٠ بيت. وعادة ما تدشب القافلة إلى مكة عن طريق سحنة لكنهم هذه السنة سرف يتحاشون ذلك الطريق بسبب روائح الجثث المتعفنة من القحطانيين وسألته إذا كانت القافلة ستمسير طوال النهار الحار فأجاب لا، والا كان الشمس تنوع السمن ويخر من البكا وقال ان القافلة سوف تضطر للسير ليلا خوف من محطان ون قاغلت سوف تلتقي عد الرس مع القافلة انقادمة من بريدة وجلس يتحدث معي لده ساعه في صوره الفرس وعبر لي حمد عن أسفه أن يلهي صداقتنا هذا لعراق السرمع وقال يمكننا أن نتواصل قريبا بعد ثم ركب وقال لي إنه سوف يعود في يوم لرحيل إلى مكان تجمع القافلة ليودعني الوداع الأخير لكنني لم أره بعد ذلك وينتهي الفصل الخامس عشر ويعقبه السادس عشر الذي يقول

كان الليل قد أظلم حينما وصلنا إلى صحن القافلة، حيث حيا سيمان الخبيبي الحماميل الذين كانوا قد سبقونا إلى المكان برفقة أحمالهم. قادنا هؤلاء إلى المكان المخصص لنا في المخيم، حيث أن كل عبيره لها منزل تحط فيه وتنتج إملها أمامه ما هي القهوة على النار في المكان المعد لنا ورأيت عكك السمن التي تؤول إلى سليمان (وكان عددها أربعة وعشرين أو ما يعادل طنا تقريبا) ملفاة على الأرض بانقظم أربع من هذه العكك، انني تعادل الواحدة منها خمسة عشر صاعا (من أصواع لقصيم)، تساوي حمل بعير، وقسمها ثلاثون دلا ويأملون بالحصول على ستمين في مكة وقد مر بالمحم البارحة جمع من أهالي عبيرة يودعون أحد بائعي وأحوالهم العاديين هذا المكان الذي تنحصر فيه القافلة التي تقصد مكة يقع وسط النجيل التي خارج البلد واسمه ابوهلان.

أوصى عبدالله الخنيني (قريبه) سليمان أن يهتم بأمري وكذلك ابن بسام ذلك الشخص الطيب أوصى بي ابنه عبدالرحمن وأكد عليهما قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة قبل مكة (سواء في وادي الليمون أو السيل) أن يبحثا عن "أدمي" بوصفني إلى جدة قبل الدخول في حدود الأماكن المقدسة ولم يسبق للخنيني طاهر القلب أن حج من قبل، ولا يعرف الطريق ولم يحضر على ناله الحالي ما سوف أتعرض له من مخاطر في نهاية هذه الرحلة

كان معنا في قافلة السمن ١٧٠ بعيرا -تحمّل حوالي ٢٠ طنا من السمن- ويصحبها سبعون رجلا منهم أربعون بعثلوا مطاياهم، والبقية رعاة وحمالون كنا متقسمين إلى حدر صغيره، كل سيد مع حاشيته وخدمه. وتحمل كل حبرة حيمة أو طلة يطلون بها على رؤوسهم إذا حطوا الرحال ظهرا. ولتظل السمن -الذي يدوب في العكك (وتسمى الواحده منها جرم والجمع حروم) مع حرارة الشمس- لا تد أن تطلي الجروم من الداخل بطبقة سميكة من لدس هذا السمن الذي يساوي أكثر من ٢٠٠ حنيه إسترليني في أسواق مكة يجمعه تجار عبيرة أثناء إربيع عن طريق امتاحرة مع البدو، ويحفظونه خلال هذه المدة في أحواض من الرخام

وهناك أمير يعينه زامل على هذه القافلة الكبيرة، وهو من عائلة الأمير ويستلم رايالا عن كل بحير من إبل انقاعة وقد حصل الخنيني على خطاب من زامل بوصي فيه أمير القافلة أن يتعهدني بالرعاية ويحرص على سلامتي إذا تركت القافلة في محطة العير جالسا حول موقد النار تتحدث حتى أخذ مما ألتفت ثم استلقيا لغنام هناك، على رمل النفود

ستبقي مع الفجر وكان لا يزال لدينا بعض الوقت لتناول لقهوة وكان الأمير وبعض تحار عبيرة الذين يقطعون مكة ويعودون العودة إليها مع القافلة أمضوا الليل داخل المدينة، وسوف يلحقون بنا على بحانهم العمانية والعمانية التي تباع بستين أو سبعين رايالا هي عتيزة لا تقل قيمتها عن ١٥٠ رايالا في موسم الحج في أسواق مكة حيث الطلب عليها كبيرا) ولما طلعت الشمس حملت القافلة وانطلقت وبعد قليل وصلنا وادي الرمة حيث سونا لمدة ساعتين قبل الظهر ثم رلنا في شعب انشيبية سليمان الخنيني جمال يمتلك الرمل، أما أحمال السمن الستة التي معه فإن قريبه عبدالله يشارك فيها

ربما كانت الساعة الثالثة قبل أن تتحرك القافلة وكانت الشمس لمحرفه قد انصرفت في اتجاه العرب وأعطى خديم الأمير الإشارة بالتحرك بأن صاح بأعلى صوته "اشيل" وفي الحال تقوض المظلات ويؤتى بالحمال وتبرك للتحميل ويسارع الجمالون إلى تحميل العكك الثقيلة على ظهور الإبل قبل رحيل القافلة، وهذا عمل شاق يعوق طاقتهم، وبدأ ركاب الحان بالتحرك ومن ليس على أهمية الاستعداد سوف يعونه الركب ويقف خدام الأمير أمام القافلة مثل الراعي يمد ذراعيه ليمسح المتقدمين عن المسير حتى يلحق بهم من خلفهم، أو يجري منا وهناك رافعا صوته على من يخالف إمامه ويبدأون المسير ولخبرهم من محافل الصحراء سحرون مجتمعين

وكان مع سليمان ثلاثة من الحمامين أحدهم، وهو شخص معدم من أهالي عتيزة، كان صباخ الحبرة، والآخر بدويا وبعد ساعة وضعوا أمامنا العشاء (طبق حار من القمح المطبوخ) وبعد الأكل ارتشفنا القهوة، وجلسوا يتحدثون لبعض الوقت ويدخنون، ثم التحف كل منا عبائه ونمنا على الرمل، لنحضر فيما تبقى من ساعات قليلة قبل طلوع الشمس.

قبل الفجر بساعة سمعنا الصيحة "الشيل"، ونهض القوم مسرعين وحرث الحراس ببرائهم الخامده ونعموا على الجمر ليرتفع لهما. ورموا على النار مزيدا من أعواد الحصب لتتحرق وتضيء لنا المكان

ولا تسمع إلا الرجال بأصواتهم الحشة وهم مجهزون للرحيل ويزدحم المكار بالابل التي لا تسمع إلا رعانها وتداععها. ولن تمر دقيقتان أو ثلاث إلا والجميع على أهبة الاستعداد الراكسون يستلزون مطاياهم والخشاة يلبثون يتححصرون المكان في ضوء الشفق الباهت للتأكد من أنهم لم يتركوا شيئا خلفهم يتحرك الجمع وتبدأ مسيرة يوم جديدة تسمر أثناء حرارة النهار الطويل حتى المساء وبعد رحلة ثلاث ساعات في صحراء مستعصية وصلنا الرس الذي لم يتردد أهله منذ حبلين في قطع نحيلهم ليعملوا منها متاريس وصدروا بمسالة فحمات جيوش إبراهيم باشا أرسل الأمير ذلولاً إلى البلد ليستطلع الأخبار وعاد النحاب ليخبره بأن قافلة السمر التي تنطلق من الرس قد غادرت من قبل مع قافلة بريدة التي مرت بهم منذ يومين

أحضر لي هذا اليوم أحد عملاء ابن بسام الخطاب الموجه من رامل إلى إبراهيم، أمير القافلة الشب، بحصه وصي ورث إبراهيم هذا مهنته من أبيه -الذي كان حتى عهد قريب أمير قافلة مدينة عبيزة- وهو ابن اخت لرامل. إنه شاب في العشرين يبدو عليه أمارات الرجولة والصحة وقد دعاني مرة لتناول العشاء معه حينما نزل في المساء وشباب النجار العائدين إلى مكة حيث دكاكينهم هناك وبعضاً من رؤساء الخبر يمتطى كل منهم دلو له ويدفعها ليسير في ركب إبراهيم يتقدمون القافلة في مسيرتها، وبين الفينة والفينة يتوقفون ويوقدون نارا من الأعواد التي يحصعونها لعمل القبوة وقد وجدت الركوب في مؤخرة القافلة حيث السير بطيء أريح لي

إنها صبيحة اليوم الخامس ونحن ما رلنا بعد السير في هذه البلاد المرتفعة، المليئة بالحبال، ومعظمها من حجر الغرانيت، وأغلبها ذات أشكال غريبة، حيث أن صحور الغرانيت تنفرش على شكل صفائح بل أحيانا على شكل قباب مستديرة وعلى شكل حراشف ومن علامات الطريق جبل برلتي فيه شرخ عجيب يسموه درب الديب. وقبل الظهر وقعنا على آثار عرو عظيم، وهو، كما يفكرين ذلك الغزو الذي شبه مؤخر ابن رشيد صد عتيبة وقبل الظهر سمعنا صوت النذير وتوقفت القافلة، يعتقد البعض أنهم طالعوا بدوا هب الحميع إلى أسلحتهم، ومعظمهم أطلق النار في الهواء ليفرغوا بنادقهم ويعمروها بالنخيرة من جديد. أما الحماميل المرمقين من السير على أقدامهم فقد بدأوا يغفرون ويرقصون ملوحين برماحهم في الهواء. واقترب الركبان بعضهم من بعض وصارت القافلة تسير محتمة وبانتظام وسليمان الذي كان أول من استخرج بندقيته من حوائطه، ركب واضعا بندقيته التي يشتعل فتيلها في حصنه، وكان يؤسجر ويصر أسنانه من الغضب وكانت هذه سيرة المسافرين، واشتد حماس أهل القافلة الذين يطلبون من الله أن يمكنهم من إبادة أعدائهم اللدودين، ذئاب الصحراء البشرية وأرسل إبراهيم مقرأ يفسون خمر الأعداء المتربصين، لكنهم عادوا بعد قليل ليؤكدوا أنه نبي لهم أن ما راوه كان مجرد أشجار صحراوية بعدها صاح خادم الأمير مناديا بمواصلة السير.

وفي كل منزل نزل فيه أرى مذكر في خيمة إبراهيم، فهو ينزل مع الأمير، هذا الشيخ البدوي وفق ودليله رافقنا ليدلنا الطريق أثناء عبورنا ديار عتيبة ويحمي القافلة في أي مواحة يتعرض لها مع قبيلته عتيبة كان هو ورفاقه الإنسي أو الثلاثة بمثابة العيون لنا في القافلة

في المضحي تترك الإبل لترعى، وتروم هذه المهائم المنيفة في الصحراء لكن أغواها التي جعت من شدة الظما لا تستطيع أن تمضغ إلا ما تقتطفه خلال سيرها السريع في الصباح الباكر حيث لا يرال تأثير مروية الليل على الأرض تنوء هذه المنائم الضخمة بأحمالها وتعرق وتكد تمتنع لشدة عطشها عن الأكل حتى نهاية اليوم السابع عشر، حينما تحط عنها أحمالها في مكة. وقال لي

جماميلنا الأقوياء بتأوه (من عادة العرب كلهم التشكي بشيء من اللامبالاة من متاعب العيش في هذه الحياة) أن عملهم في الرحلة متعب جدا. يركب أحدهم في الصباح واثنان يمشيان ويعد الظهير أحدهم يمشي واثنان يركبان. ومسير قافلة القصيم لا يشبه مسيرة قافلة حجاج الشام التي تتحرك ببطة، فهم يحنون ركانبهم في حمارة القيط من مورد لآخر. والموارد بعيدة بعضها عن بعض، ولا بد من الوصول إلى المورد التالي قبل اليوم الرابع من مغادرة المورد الأخير وإلا سقطت الإبل من الإعياء.

وبعد ثلاثة أيام بدأ يتفد صبر رجال القافلة وصاروا يزجرون مطاياهم بأصوات مشحونة تصدر من رجال على حافة اليأس. يحنون فلانصبيهم لتغذ سيرها ويلكشونها برؤوس رماحهم ينهرونها ويندبونها ويدعون عليها بالويل والثبور "يا مل الطير"، "يا مل الذبح"، ولو تلكأت لحظة لتقطف غصنا صاحبوا بها "يا مل الجوع"، "حي لا بارك الله بك". ويجب على الجمال ألا يصرف نظره عن حمل بعيده لأنه من عادة البعير إذا جاء منطقة رملية أن يبرك ويتمرغ فيها ليسكن الحكة التي نهش جلده، ولو حدث ذلك تحطم الحمل. ومع مرور كل يوم تزداد طباع أهل القافلة شراسة ويقل كلامهم ولا يتكلمون إلا بشق الأنفس. أما الجمالون اللذين يحسون مرارة العطش في حلوهم فإنهم لا يتلفظون إلا نزرا وبعبارات نابية، مثل "أنا ولد أبوي"، "أنا أخوك ياخني".

وفي مضحانا بلغت درجة الحرارة ١٠٢ فهرنهايت في الظل، وقد منا موعد تحركنا واستعجلنا لنذكر الماء الذي وصلناه قبل الغروب بساعتين. هذه عفيف، مورد قديم عمقه عشرة أبوا وهو مطوي بالحجارة البازلتية الخشنة. وأسرع سليمان مع بقية أعيان القافلة وتقدموا إلى الماء بعدتهم، كل منهم يحاول أن يسبق الآخر إلى فوهة البئر ليحجز مكانا للرأي. ولما وصلناهم وجدناهم وانفج كل معه عدة السقي التي تتألف من عمود خشبي سميك يغرس في الأرض ويثبت بالحجارة وتثبت المحالة في رأسه المشقوق، كتلك التي يستخدمها البدو في قلياتهم العميقة، وبدون هذه الطريقة لا يستطيعون جذب الماء. ويجذب الرشاء رجلان يسيران إلى الخلف ويقف الثالث على حافة البئر ليستلم الدلو المملوء إذا ارتفع ويفرغه في حوض الإبل، والذي هو عبارة عن قطعة من الجلد أو السجاد تفرش على حفرة كانوا قد حفروها بالحصى والعصي وأيديهم العارية في الأرض الصلبة المغطاة بالزلط. وسقيا هذا العدد الضخم من الإبل على بئر واحد يتطلب جهدا كبيرا من الرجال الذين يعملون بأقصى طاقتهم ولا تسمع إلا أمانيجهم التي يرددونها بصوت واحد مثل البدو.

تسلك القوافل التي تنطلق من القصيم إلى مكة طريقان: الدرب الغربي وموارده عديدة ومتقاربة، وهذا هو الطريق الذي سلكته من قبلنا قافلة بريدة والرس، ويسمى الدرب السلطاني. والدرب الأوسط الذي نحن عليه وتسلك القوافل المسرعة وموارده متباعدة ومن يسلكه يسلم من الاحتكاك بالبدو لأنهم لا يقطنون على موارده في القيط. ولا يجزؤ أصحاب القوافل على السقيا من الموارد التي يقطن عليها البدو الذين لا يؤمن جانبهم. في مثل هذه الحالة يأمر أهل القافلة البدو بالرحيل، فينصاعون لأوامر الحضر على مضمض. أما إذا كان البدو القاطنين كثيرين ولا يستطيع الحضر ترحيلهم فإنهم يتناوبون معهم على الماء ويسقون بسرعة واسلحتهم بأيديهم ثم يسوقون الإبل التي لم تأخذ كفايتها من الماء إلى المورد التالي. ومعظم الموارد في هذه الصحراء ماؤها مالح.

عفيف التي توقفنا فيها لنستريح أرض منخفضة تحيط بها الجبال البازلتية. ورأيت الأحجار البازلتية الخشنة على فوهة هذا البئر تغطيها قشور الكلس الأبيض وأحدثت فيها حبال البدو اللينة شقوقا غائرة. وتنمو هنا بكثرة أعشاب الضرم الطويلة المعترشة التي سبق لي رؤيتها على طريق الحج

الشمامي. وسميقت إبلنا التي لم تطعم شيئا إلى المرعى، واعتلى رفاقنا أصحاب مذكر من قبيلة عتيبة المرقب، وهو جبل بارزتي بالقرب منا، للمراقبة. وكانت حرارة الشمس شديدة على رؤوس رعاة الإبل، لأن حرارة الشمس التي يمكن للمسافر أن يتحملها وهو يتحرك في الهواء لا تطاق حتى بالنسبة للبدوي في حالة التوقف، واشتكى لي أحد "الملاحيق" من أشعة الشمس التي صار يغطي منها دماغه. وقبل المساء رأينا إشارة الخطر تصدر من رفاقنا في المرقب، وأحضرت الإبل بسرعة. لقد شاهد الرقباء زول يعتقدون أنه بدوي، ولكن تبين لهم بعد قليل أنهم أربعة "أزوال" راكبين حميرهم. إذا وصل أمير القافلة إلى المنزل الذي يريد أن يتوقف فيه شد خطام ناقته وخطبها بعصاه على الرقبة وصوت لها لتنيخ. وتبدأ البهيمة المتعبة ترغي وتثني ركبتيها وتثور حول نفسها كما يفعل الكلب إذا هم بالربوض، ويتبع أعيان القافلة أميرهم وينزلون معه ويحرصون على أن يتخذ منزلهم شكلا دائريا، ثم يسوقون الإبل إلى حيث تترك وينزلون أحمالها.

قبيل الظهر وقعنا على آثار أدبش لبدو قادمين من جهة الحرة إلى حيث توجد آبار جيدة للسقيا في طريقنا. وفي النصحي كان قد نال منا العطش، ولم نذق من الماء إلا تلك الجرعات المرة من ماء شربة العكر. ولم نصل الماء إلا بعد حلول المساء أو صباح الغد، وجدت درجة الحرارة في الظل ١٠٧ درجة فهرنهايت وبدأ يهب علينا السموم. وفي المقل لا يتناول أصحاب القافلة إلا الفرم وما تبقى من عشاء البارحة من الرز أو الثريد. ويأكل الأعيان والرعيان من قصعة واحدة ولكنهم اليوم لم يستطيعوا أكل شيء من شدة العطش. ذهبت إلى خيمة إبراهيم وابن بسام - كل منهم يحمل عشر قرب من الماء - لأطلب فنجانا من القهوة أو من الماء، وأعطاني رجالهم رشقة من الماء لا غير. لأن هذه طريقة العرب في السفر.

بعدما تركنا خلفنا جبال الأكسوم وهكران تنبعت إلى حركة في مؤخرة القافلة ورأيت البعض على ركاتبهم يتقدمون القافلة بسرعة خاطفة، ساروا مسرعين يبحثون عن بعض الثمائل التي لا تبعد كثيرا عن الطريق. ولما وصلوا قفز كل منهم في حفرة الماء ليملا قريته، ووقف في الماء الوحل الذي غمره حتى منتصف قامته. وسارع كل من الناس العطشى إلى الماء وشرب مليا، إنائه، ولم يتنبهوا إلا بعد ذلك إلى أن الماء لم يكن نظيفا.

وفي الليل أرسل إبراهيم بعض الركبان ليحسوا لنا الماء أمامنا، والذي كنا نأمل بوصوله أمس، ويخبرونا إن كان البدو يقطنون عليه. طلعت علينا الشمس ونحن ما زلنا نستريح في هذا المكان الجميل. وبعد طلوع الشمس بنصف ساعة رأينا روادنا يعودون حاملين معهم الأخبار بأنهم لم يلقوا إلا بدوا قليلين على الماء من عتيبة وأنهم تحدثوا مع واحد منهم وجدوه في الصحراء فدعاهم ليستقيهم من حليب نياقه، بقينا في مكاننا ونصينا خيامنا. ونحروا قاطرا وزعوا على الخبر التي اشترت من لحمها. وقد استاقوا مع القافلة ثلاثا أو أربعاً من هذه الجزر، وبهذه الطريقة يتذوق رجال القافلة اللعبون اللحم كل بضعة أيام.

انطلقت القافلة ظهرا وامتدت أمامنا السبخة المستوية التي تصل إلى سيف الحرة وإلى اليسار منا يمتد أفق الصحراء. ومررنا ما بين جبل هكران المنخفض وأطراف الحرة. ومع غروب الشمس دخلت القافلة جانبا مجوفا على حافة الحرة صخوره البركانية ثقيلة وبارزلية. هنا مورد من عدة آبار، النويه، أو مويه الشعيب، أو أمواه هكران، وهو مورد رئيسي من موارد العرب.

وجدنا البدو كانوا قد غادروا المكان ومع ذلك فإننا نزلنا وقت الغسق قبل الوصول إلى الماء بمسافة ليست بالبعيدة، لأن المكان في هذه الأشهر يمتلئ باللصوص. وأرسلت كل خبيرة رجلا إلى الأبار

ليملا قريتهم من مائها ليشرّبوا. رتب أصحاب القافلة منزلهم على شكل دائرة مملوءة خوفاً من مفاجات الصحراء. واشعلت النيران للطبخ وعمل القهوة. كانت الليالي مظلمة فاستعدوا للحراسة. يظل في كل خيمة شخصاً متيقظاً للحراسة، ويتناوب الحراسة ثلاثة أشخاص حتى مطلع الفجر. ونكر لي سليمان أنهم في قوافل الحج السنوية التي تحمل البضائع الكثيرة والغضة يقومون بالحراسة الليلية طوال هذا الطريق الصحراوي الطويل.

في الصباح الباكر ساق القصصان إبلهم إلى المورد ليسقوها حاملين أسلحتهم بأيديهم وكان عملهم سريعاً نظراً لكثرة الآبار. وغادرت القافلة بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان هذا اليوم الثالث عشر من مغادرتنا عنيزة. ولم نقابل أحداً من البشر منذ تركنا القصيم، ولكننا الآن نرى قليلاً من البدو يقودون إبلهم إلى الماء ليسقوها. ولم يتغير منظر السهوب من حولنا، تتناثر قمم من صخور المرو، أكوام من البياض اللامع تراها في هذه الأرض. مررنا بدار، أو منزل قديم مهجور من منازل البدو، وآبار مائها مالح. الجبال المرتفع من حرة كسب يتجه معنا دائماً حيثما نسير، وشاهدت فيه عبر الصحراء أشجار الأكاشيا الخضراء وثلال عالية من الرمال المتحركة أراها عبر الصحراء. وبدت لنا التلال البركانية التي لا نكاد نراها في ضوء الشمس التي لفها النشاص (هذه اللابات العظيمة غمرت الصخور البلوتونية، على خلاف حرات خيبر والعويرض التي يغطيها الحجر الرملي). ولا تزال السبخات تمتد بين طريق القافلة والحرة. هذا هو ما نشاهده من تضاريس بشعة المفطر في الطريق من نجد إلى مكة. يبلغ ارتفاع هذه القفار حوالي ٤٢٠٠ قدم.

توقفنا في الظهيرة واستعجلنا في نصب الخيام لتفينا حرارة الشمس. واتجه نحونا قادم من الخلاء بدوي راكب ذلوله. أخبرنا هذا الرجل الودود من عتية أن قافلة بريدة على ماء مران، هناك أسفل من الحرة. وعصف علينا عبوب السموم من الغرب أثناء سيرنا بعد الظهر. وأنخنا للمبيت مع غروب الشمس. إلا أن بعض رجال القافلة، لما سمعوا أن هناك آباراً غير بعيدة منا، ركبوا ليملاؤا القرب بالماء، لكنهم عادوا بدون ماء. لأنهم وجدوه، كما قالوا لنا، مالحاً وطعمه كبريتي.

أثناء مسيرنا في المساء رأينا قطعان البدو من الأغنام يرعاهم أطفال عراة. كان أولئك البدو الصغار نحيلي الأجسام ويشترتهم بنية بلون الجوز من لهيب الشمس المحرقة. شاهدنا إبلهم أمامنا واقترب منا الرعاة ليسألونا عن الأخبار. وجاءنا خيال راكباً فرسه العاري من السرج ودفعه بجرأة في وسطنا. وأصبحنا نرى بيوتهم السود. هؤلاء هم عرب الشيبانين من عتية. كانت الشمس تنحدر نحو المغرب وابتعدنا قليلاً عن قطين البدو ونزلنا. وجاءنا بعض نساء البدو يسألن أهل القافلة إذا ما كان لديهم قماش للبيع. لكن القصصان قالوا لي إن قصدهن النجس على مخيمنا وإذا ما كان هناك شيء يمكن سرقة بالليل. لاحظت عيونهن حادة البصر بشرتي البيضاء وسألن من هذا؟ من هذا الغريب بينكم؟

وفي الغد وأصلنا مسيرتنا وسط قطعان البدو، وكلها هنا وبرها أبيض. في هذه الصحراء المدارية رأيت بعض النباتات المنعزلة من صبار المفصليات المزهرة "الغلاشي" الذي يستخدمونه لعلاج الإبل. يدهن به البدو أنوف إبلهم المريضة. والأرض خليط من الرمل والزلط البلوري. وقبل الظهر بساعتين وصلنا إلى عرق آخر من عروق اللابة البازلتية وصادفنا إبلاً هؤلاء الشيبانين صادرة من مورد الشعراء وكانت تبرك غير بعيد منا. هذه الإبل العتيبية لونها بني وقليل منها لونها يميل إلى السواد وكلها صغيرة الحجم. كان الرعاة شباب جريئون ويتكلمون بطلاقة. وحينما مررت راكباً أمام بيت منعزل رأيت داخله امرأة مع ابنها فسلمت عليها وردت علي بطلاقة مرحباً، مرحباً. حينما اقتربنا من

منازل البدو بأدب رفاقنا في القافلة، كعادتهم في الحذر من البدو، باستخراج بنادقهم الطويلة من أخبيتها وأشعلوا الفتائل وظلوا ركبين وبنادقهم على ركبهم.

وقابلنا شاب بدوي رشيق جاء لبسقي إبله وكم كان وسيما وجه ذلك الشاب وهو يرتدي رداءه المكي الأزرق، وهذا اللون في نظر أهل الشمال لا يلبسه إلا النساء. وتساقطت ظفائره الحالكة السوداء متناثرة على اكتافه. وصاح راعي إبلنا العنزي، الذي بحكم أنه بدوي يكره كل البدو الذين لا ينتمون لقبيلته، "هيه يا ولد، أقول يالربع، أبك هذا رجال والامرء؟" وكاد الشاب المسكين أن يتعير غيظا ونظروا إلينا شزرا بعينيه الجميلتين وكاد أن ينفجر بالبكاء.

أمضى أصحاب القافلة ليلتهم هذه متسلحين. وكانت إغفامتنا تقطعها صيحات التحذير وطلقات البنادق التي لم تتوقف حتى الصباح وأمضينا الليل ونحن عرضة للخطر من هذه الطلقات التي تصدر من مخيمنا. والبدوي الذي يقبضون عليه وهو يتلصص يحضرونه إلى خيمة الأمير، وقالوا لي إن عقوبته الضرب حتى الموت. ولا يكاد يفوت يوم دون أن يفقد شيء من القافلة، ومن المحتمل أنه ترك على الأرض أثناء ركوبنا في الظلام قبل انبلاج الصبح. وإذا وصلنا منزلنا التالي قام صاحب الحاجة المفقودة يصيح بين يديه المضمومتين إلى غمه يعلن عن فقدانه هذا الشيء أو ذاك ويطلب من أي شخص عثر عليه أن يخاف الله ويعيده.

جاء إلينا بعض البدو في الصباح وحالما رأوني سألوا بالبحاح من أكون، وسألهم أصحاب القافلة عن أسعار السمن في مكة. وحينما غادرنا، بعد أن أسقينا الإبل مرة أخرى، جاء بدوي واندس في القافلة، وكانت ملابسه رثة مثل غيره من البدو ولكنه كان وسيما مقارنة بالحالة المزرية لهؤلاء الحضر الكادحين. لكن راعي إبلنا العنزي بلسانه السليط لعن آياه الذي خلفه وأمره أن يبتعد عنا! لكن العتيبي استل طرف سيفه من غمده وأبتسم ابتسامة البدو المهذبة، فهو لا يخاف من الحضر وسط دبرته.